اكتشافات وخصائص فنية

في عمارة الكتلة الكلسية

د. وداد خوري

ان نشر موقع دير سيتا قد اضاف الى مجموعة الأعمال التي تقوم بدراسة الكتلة الكلسية السورية مع محتواها من المدن الميتة التي نشأت في الفترة الرومانو- بيزنطية دراسة تحليلة عمرانية لمدينة متوسطة الحجم تمثل نموذجا عن مدن جبل باريشا . وكشفت لنا هذه المدينة أحياء سكنية مع خدماتها ومعاصرها وخزاناتها واوابدها العامة . كما قدم لنا مجموعة من الابنية الدينية الهامة بالنسبة لتاريخ العمارة السورية ومدارسها الفنية والزخرفية . واظهرت دراسة هذه الابنية نماذج خاصة تنفرد بخصائص جديدة أساسية في متابعة الكشوف الاثرية والبحث العلمي في هذا العالم الواسع ومن هذه الابنية بناء الكنيسة الشمالية ذات الهيكل المستقيم والاعمدة المستندة وهي كنيسة من القرن السادس ، لها معمد منفرد مربع يحمل صفين من الاعمدة محمولين على قواعد متناوبة الشكل . ولهذه الكنيسة أبعاد كبيرة تجعلها مع هيكلها المستقيم الذي يحمي الحنية الدائرية والذي يزدان بالاعمدة المستندة ، تجعلها خاصة ما بين كنائس القرن السادس التي صغر حجمها ، واخذت واجهتها الشرقية شكلا أكثر بساطة مقتصرعلى الفتحات والشرائط التزيينية المحيطة بها ، وكذلك بناء الكنيسة الغربية العائدة في الغالب الى القرن الخامس ذات الهيكل المستقيم والقواطع المستقيمة وذات المزار الجنوبي الغربي المضلع الذي ينفرد في زاويتها الجنوبية الغربية. تنفرد هذه الكنيسة بمثل هذا البناء الذي قام البحث بكشف وظيفة بعدما ظنه العلماء معمدا ثانيا للكنيسة الاولى طوال السنين السابقة .

اعتبارا من هذا الكشف استلزم التوثيق العلمي البحث عن امثلة مشابهة تفسر من خلالها هذه الميزات المنفردة وتفهم فهما أوسع وادق . في هذا المجال قدم لنا محتوى جبل باريشا مجموعة امثلة مشابهة للكنيسة الاولى ، أي عرفنا أن لمثل هيكلها ذو الاعمدة المستندة أصولا سابقة هيأت لظهوره كما هو .

وفي هذا المجال أصدر البرفيسور « سوديني » مع الاستاذ « بيسكو » بحثا متخصصا بالهياكل ذات الاعمدة المستندة والمشابهة لهياكل كنيسة قلعة سمعان الا ان المثل الحقيقي الذي يناظر تماما مثل كنيسة دير سيتا وقد ذكره « سوديني » في مقاله موجود في تورين في الجبل الوسطاني . كما يضم هذا الجبل مثلا آخر وهو كنيسة خراب سلطان المماثلة للكنيسة الغربية في دير سيتا في توضعها مع توضع الابنية الملتفة حولها وبالذات غرفة المزار الجنائزية . لذا نلتفت في بحثنا الآن الجبل الوسطاني لنجد التفسيرات العلمية للخصائص التي تلفت الانتباه وليكشف لنا عبر عمل الاستقصاء هذا عن مجموعة مواقع هامة غير منشورة تشكل نقاطا أساسية في البحث الاثري في المرحلة وفي المحافظة التي نقوم بدراستها وهذه المواقع باستعراض سريع هي - تورين - خراب سلطان - فاسوق - كفر عقاب - مرصرص - مشارف العليا .

الجبل الوسطاني الشمالي :

هو مجموعة جبال تشكل الجناح الجنوبي - الغربي - من الكتلة الكلسية . ويمتد بالاتجاه الجنوبي على ٣٠ كم وبالاتجاه الشرقي - الغربي على طول ٦ كم . ميوله الجنوبية جرداء نسبيا ما عدا جوار

العاصي حيث يفتني بالحراج واشجار الزيتون وقد تبقي غير مسكون حتى نهايات القرن الماضي حيث بدات مجموعات من البداوة القادمة من شرقي حلب الاستقرار فيه بشكل تدريجي ، وحتى عام ١٩٧٠ كانت الدراسات والبحث الجارية فيه نادرة ، ولم يذكر الا « فرومان وموتيرد » الذي درس بعض الكتابات . وسنعرض من المواقع التي تهمنا .

- تورين :

واسمها معروف لنا من كتابة وجدت في موقع الحصن في جبل الدويلة وتاريخها ٣٦٧ - ٣٦٨م . ومنها نعرف أن تورين كانت موقعا كبيرا استقر فيه الى جانب السكان السوريين مجموعة من السكان الرومان الذين قرروا الاستيطان في المنطقة ونعرف من هذه الكتابة أن تورين احتضنت لفترة فرقة عسكرية رومانية .

ان اتساع الانقاض اليوم يشير الى عظمة المدينة السابقة كما تشير مجموعة القبور الصخرية النحتية والغرف الجنازية المبنية الى الغنى الذي كان عليه سكانها . والاهم هو عدد الكنائس الكبير الذي اكتشفناه في هذا الموقع والذي يصل الى سبعة كنائس مع كنيسة جنائزية صغيرة . تمتد هذه الكنائس من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي بالتتالي ، تتجمع ثلاثة منها في القسم الغربي وأسميناها الكنائس الغربية الاولى والثانية والثالثة وتتباعد عن بعضها بمسافات قصيرة محدودة ببضعة عشرين مترا . الاولى منها محفوظة حفظا عاليا مكننا من اعادة رسمها ورسم واجهاتها وهي كنيسة القرن السادس المحمولة على اعمدة والثانية وهي كنيسة القرن الخامس ومحمولة على ركائز تقع مباشرة خلف الاولى وهي متوسطة المساحة وتحتفظ بمداميكها الاولى وبحنيتها وبزاويتها الجنوبية الغربية . اما الثالثة فلم يبق منها سوى بقايا تزينية محدورة تشير الى القرن السادس . في منتصف المسافة ما بين هذا الطرف الغربي والطرف الشرقي المقابل نجد بقايا لكنيستين سيئتي الحفظ لحد ان لها صواعد وابواب واجهتها الجنوبية موجودة في موضعها وتشير الى القرن الخامس والثانية لها تيجان موجودة في مكانها ، ويمكن ارجاعها الى القرن السادس اما في القسم الشرقي فتتجمع ثلاثة كنائس لا تفصلها الا بضعة أمتار وكلها ذات هياكل مستقيمة واحدة مندثرة كليا لم يبق منها سوى قواعد وقطع من اعمدتها المصطفة وقطرها ٤٥ سم وتيجانها أيونية والثانية وتملك كافة مداميكها المحيطة الاولى ومساحتها صغيرة نسبيا . لها رواق جنوبي وتملك مساكنا منحوتا أملس وقواعد وقطع من أعمدتها وقطرها ٥٢ سم وهي ذات هيكل له قواطع مستقيمة تقع هاتان الكنيستان على التتابع شرق الكنيسة الشرقية الصغيرة ذات الحنية البارزة وأبعادها صغيرة . اما الكنيسة الشرقية الثالثة فهي كبيرة المساحة لها حنية المذبح (رسم ١ و ٢) . وهيكل خارجي مستقيم ذو اعمدة مستندة مطابقة لعرض المذبح (رسم ١ و ٢) . نقدم لدراسة تفصيلية لهذه الواجهة مع اعادة بناء لها نفهم منه تصميم هذه الواجهة وانتقال هذه الاعمدة المستندة من الهياكل الدائرية في قلعة سمعان - بنكوسا - الخ . الى الهياكل المستقيمة في تورين الى دير سيتا .

- خراب سلطان :

في خراب سلطان كنيستين غير منشورتين واحدة غربية ذات حنية يمكن أنها كانت محمولة على ركائز وهي متوسطة المساحة اما الثانية وهي الشرقية لها مصطبة مركزية فهي غنية بالتزيينات النحتية الجميلة وهي التي تملك في زاويتها الجنوبية الغربية وعلى بعد بضعة أمتار غرفة مزار جنائزية مربعة محتفظة بكامل جدرانها لا يزال في مركزها علبة ذخائر مع غطائها السنمي وهي التي تناظر - وغالبا تسبق مزار الكنيسة في دير سيتا (الرسم ٣ ، ٤) .

- فاسوق :

فيها كنيستان هامتان بتوضعهما المتوازي تفصلهما باحة . تتميز احداهما وهي الشمالية ذات المساحة المتوسطة بتيجانها الأيونية وهي ذات ركائز اما الثانية بوجود غرفة زخائر نصل اليها من غرفة الشهداء وقد احتوت وظيفة خاصة لحج المرضى (الرسم ٥) .

- كفـرة عقــاب :

مدينة رومانية هامة نظن بعد دراستها ومعرفة كبر حجمها وبنائها المربع الكبير ذو الابراج ، وكنائسها واديرتها العـدة بأنها مدينة « نيا قابا » التاريخية غير المكشوفة الى الآن والمذكورة في النصوص التاريخيـة كمرحلة من المسار الذي أجراه الامبراطور « انطوانان » ما بين افاميا وانطاكية في النصف الثاني من القرن السادس .

- مرصـوص :

مدينة ميتة تحتوي على كنيسة هامة مبنية على مراحل ومحمولة على ركائز لها خصوصيات تاريخية وانشائية تجعلها جديرية بالاهتمام (الرسم ٦) .

- مشـارف العليـا :

موقع وثني غير منشور عرف لنا من خلال اجراء الزيارات السابقة . وجدنا فيه آثار معبد وخلايا سكنية متأخرة وبحيرة صخرية منحوتة ابعادها (٨ × ٤ر٢) يجاورها عمودان خاصين في توضعهما غير واضحي الوظيفة يجعلها جديرة بالاهتمام العلمي .